أثر المسيَّب بن علس في شعر الأعشى الكبير

بقلم : أنور عليان أبو سويلم

عدّ الأصمعي المسيب بن علس من فحول الشعراء، واستبعد منهم الأعشى الكبير، وعمرو بن كلثوم، وعدي بن زيد[1].

وروى الأصمعي أنّ بني قيس بن ثعلبة من أشعر العرب، وذكر منهم المرقش والأعشى والمسيب بن علس[2].

وعدّ ابن سلاّم الجمحي المسيب بن علس في الطبقة السابعة من الشعراء الجاهليين، وقال[3] : «هم أربعة رهْط مُحكمون، في أشعارهم قلّة، فذلك الذي أخّرهم» وهم : المسيب بن علس الضبعي، وسلامة بن جندل، وحُصين بن الحُمام المُرّي، والمتلمس الضّبعي.

---

(1) الأصمعي : فحولة الشعراء، حققه : ش. تورّي، قدم له : صلاح المنجد، دار الكتاب الجديد، بيروت، 1980، ص 11.

(2) الأصمعي. فحولة الشعراء، ص 19.

(3) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء، حققه : محمود شاكر، دار المعارف بمصر، 1952 ص 156.

وروى ابن قتيبة أنّ أبا عبيدة، قال[4] : اتّفقوا على أنّ أشعر المقلّين في الجاهلية ثلاثة : المتلمّس والمسيب بن علس وحصين بن الحمام المرّي.

ونقل ابن رشق في العمدة روايتي ابن سلام الجمحي وابن قتيبة ولم يزد عليهما[5].

وكرّر النقل عنهما ولم يزد شيئا السيوطي في المزهر[6].

وينقل البغدادي رواية أبي عبيدة[7]، ويضيف اليها[8] : واتّفقوا على أنّ المتلمس أشعرهم.

وكانت قصيدة المسيب التي تبدأ بقوله :

أرحلتَ من سلمى بغير متاعِ قبل العُطاسِ ورعتَها بوداعِ

من أسباب جمع الشعر العربي في مجموعات شعرية، فقد روى القالي[9] أنّ أبا جعفر المنصور مرّ بابنه المهدي وهو يُنْشد المفضّل الضبي قصيدة المسيب العينية فلم يزل واقفا من حيث لا يشعر به حتى استوفى سماعها، ثم صار الى مجلس له، وأمر بإحضارهما فحدّث المفضل بوقوفه واستماعه لقصيدة المسيب واستحسانه إياها، وقال له : لو عمدت الى أشعار الشعراء المقلّين واخترت لفَتَاك لكل شاعر أجود ما قال لكان ذلك صوابا. ففعل المفضّل.

---

(4) ابن قتيبة ، الشعر والشعراء، ص 182، وص 648.

(5) ابن رشيق القيرواني، ابو علي الحسن (ت 456 هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه، حققه : محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت إد.تا، ج 1، ص 219.

(6) السيوطي، المزهر، ج2، ص 486 ـ 487. وكذلك فعل البيهقي في المحاسن والمساوئ، ج2، ص 163.

(7) البغدادي، خزانة الأدب حققه : عبد السلام هارون، مطبعةالبابي الحلبي بمصر، ج2، ص 327.

(8) البغدادي، خزانة الأدب، ج6، ص 345.

(9) القالي، اسماعيل بن القاسم (ت 356 هـ)، ذيل الأمالي والنوادر، حققه : إسماعيل يوسف، مطبعة السعادة، القاهرة، 1953م، ص 13 ـ 132.

فهذه القصيدة أوحت لأبي جعفر المنصور فكرة جمع الشعر الجاهلي، وكانت سببا مباشرا في اختيارات المفضّل المشهورة التي تابعه فيها الأصمعي، وأبو زيد القرشي وأبو تمام والبحتري وأصحاب كتب الحماسة والمجموعات الشعرية.

وفي مطلع القرن الرابع الهجري يختار أبو زيد، محمد بن أبي الخطاب القرشي قصيدة ثانية للمسيب بن علس ويجعلها أولى المنتقيات[10].

وفي ضوء ذلك يمكن أن نستنتج أن المسيب بن علس كان يعدّ من فحول الشعراء، وأن الذي أخّره في الطبقة السابعة منهم قلّة أشعاره التي وصلت الى أيدي العلماء في عصر التدوين، لأنه شاعر قديم، وهو أقدم من طبقة الأعشى وطرفة والمتلمس والنابغة وعنترة.

وتبدو أهمية شعر المسيب بن علس في رواية تواترت عند العلماء الثقات؛ فقد روى ابن قتيبة أن الأعشى كان راوية لخاله المسيب، قال[11]: «وهو خال الأعشى، أعشى قيس، وكان الأعشى روايته».

ثم ينقل صاحب الموشح قول أحمد بن أبي طاهر، قال[12]: «كان الأعشى راوية المسيّب بن علس، والمسيب خاله، وكان يَطْرُدُ شعره ويأخُذُ منه».

---

(10) أبو زيد القرشي، محمد بن أبي الخطاب، جمهرة أشعار العرب، محمد علي الهاشمي، دار القلم، دمشق 1986، ص 547ـ 550.

(11) ابن قتيبة، الشعر والشعراء، ص 174.

(12) المرزباني، محمد بن عمران (ت 384هـ)، الموشح في مآخذ العلماء على الشعراء، حققه: علي البجاوي. دار نهضة مصر 1965م، ص67، والبغدادي، خزانة الأدب، ج3، ص240.

وينقل الحاتمي[13] هذه التهمة ويشير إلى «أن النعمان بن المنذر قد حبسه واتّهمه بانتحال الشّعر»، وأنه اعتمد على قصيدة خاله أبي الفضة المسيب بن علس؛ يعني قصيدة المسيب التي تبدأ بقوله:

أعاذل لمّا تَرَيْن الغداة وقَنَّعني الشيبُ منه خمارا

فقال الأعشى قصيدته التي تبدأ بقوله[14]:

أأزمعت من آل ليلى ابتكارا وشَطَّتْ على ذي هوى أن تزارا

وفيها ينكر انتحال الشعر، قال:

فما أنا أم ما انتحالي القوا فيَ بعد المشيب كفى ذاك عارا
وقيَّدني الشّعْرُ في بيته كما قيّد الآسراتُ الحمارا

ومن الغريب أن الأعشى قد انتحل جُلّ قصيدة المسيب بن علس في القصيدة التي ينكر فيها انتحال القوافي، وسأبرهن على ذلك عندما أعرض للقصيدتين. ويبدو أن هذه التهمة كانت مشهورة في حياة الأعشى؛ لذلك حاول أن ينفيها عنه بحجّة أنّه لا يقع فيها إلاّ الصغار من الشعراء.

ويشير الحاتمي في موضع آخر عندما يعرض لقول المسيب:

إذا حاجةٌ ولّتك لا تستطيعها فخذ طرفا من غيرها حين تُسْبَقُ
فذلك أحرى أن تنال جسيمها وللْقَصْدُ أبقى في المسير وألحقُ

فيقول[15]: وقد روي هذان البيتان للأعشى، فإن كانت الرواية صحيحة فقد استلحقهما الأعشى من المسيّب، وهو تحرُّزٌ يشير الى دقّة

---

(13) الحاتمي، محمد بن الحسن بن المظفر، حلية المحاضرة في صناعة الشعر، حققه: جعفر الكتاني، دار الرشيد، بغداد 1979م، ج2، ص 29 ـ 30.

(14) القصيدة المشار اليها في مديح قيس بن معديكرب، ديوان الأعشى، ص 81.

(15) الحاتمي، حلية المحاضرة، ج2، ص251.

الحاتمي في الحكم على الشعراء، وينبهنا الى قضية خطيرة في هذا الموضع، فالرواة كثيرا ما يخلطون في شعر أبناء القبيلة الواحدة، وشعر الراوي والمروي عنه، والشاعر وابنه أو ابن أخته.

ويشير الهمداني في الإكليل إلى أن الأعشى كان يحتذي في شعره على مثال خاله المسيّب[16].

وينقل ابن سعيد من كتاب «واجب الأدب والكمائم» الضائع، أن المسيّب خال الأعشى. وكان الأعشى يتوكأ على شعره[17].

ولم يتكئ الأعشى وحده على شعر المسيّب، فقد أغار على معانيه شعراء كثيرون من قبيلته ومن شعراء القبائل المجاورة، ولا شكّ أن أفراد العشيرة أو القبيلة الذين يهمّهم فنّ الشاعر يصبحون رواة متطوعين لنشر قصائده، ومن العادة أن يستظهر أصدقاء الشاعر قصيدته الجديدة، ويأخذها آخرون عنهم ومن المسلّم به أن كل أثر شعري في العصر الجاهلي كان ينتشر بوساطة رواية جماعية غير منتظمة. وإلى جانب الشاعر نجد الراوي، وقد يكون ابنه أو أحد أقربائه، فقد روى كعب شعر زهير أبيه، وقد يكون الراوي من غير قبيلة الشاعر، فقد كان زهير راوية لأوس بن حجر. إنّ دور الراوي يتّسم بالخطورة، فهو الذي ينقلنا من حالة انتشار فوضوية الى حالة جمع مرتّب للآثار الشعريّة، وإذا كان الشاعر حيّا امتزجت شخصيّة الراوي بشخصيّة الشاعر، وعند موته يصبح الراوي أمينا على أثر الشاعر، ومناط اهتمام القبيلة التي ينتسب إليها الشاعر[18].

---

(16) الهمداني: الإكليل، حققه: محمد بن علي الأكوع، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة 1966م، ص307.

(17) ابن سعيد الأندلسي (ت685هـ): نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، حققه: نصرت عبد الرحمان، مكتبة الاقصى، عمان 1982م، ص657.

(18) ريجيس بلاشير: تاريخ الأدب العربي في العصر الجاهلي عرّبه: إبراهيم كيلاني، دار الفكر، بيروت [د.ت]، ص 100 ـ 101.

وقد أدرك غوستاف غرنباوم ملامح مدرسة فنية ينفرد بها شعراء «قيس بن ثعلبة» عن الشعراء الجاهلين، سمّاها مدرسة «قيس بن ثعلبة» وأفراد هذه المدرسة يتشابهون في النَّسَق والموضوع والصيغ اللغوية والخيال، قال[19] : نقل طرفة والأعشى الى العراق سياقا فنّيا لمدرسة شعريّة متميّزة ينتمي أعلامها الى قبيلة «قيس بن ثعلبة».

وليس من شك لديّ أن الأعشى قد تمثّل شعر خاله المسيّب تمثّلاً جعله غير قادر - في بعض الأحيان - على الخروج عن الصور الشعرية التي ابتكرها المسيّب، والصياغة اللغوية، والبناء الفني للقصيدة.

ويبدو أن الأعشى كان كَلِفًا بشعر خاله يحفظه ويجتلب صوره ونماذجه، ويعيد صياغتها، وكثيرا ما تعتلج في صدره معاني المسيّب، فيستعين بخاطره، ويستمدّ من قريحته، ويعتمد مفرداته وصوره وقوافيه، وقد يكسو المعاني التي يجتليها رؤيته الشخصية ومزاجه الخاص، ويضيف إليها روحا جديد، فقد احتذى الأعشى قصيدة المسيّب التي تبدأ بقوله[20] :

وشَرْبٍ كِرَامٍ حِسَان الوجوه تُغادِيهِمُ النَّشَواتُ ابتكارا

فقال الأعشى في مطلع قصيدته[21] :

وذاتِ نَوافٍ كلون الفصو ص باكرتُها فَادَّمَجْتُ ابتكارا

وقال المسيّب :

أعاذلَ لَمّا تَرَيْن الغداةَ وقَنَّعني الشَّيْبُ منه خِمارا

---

(19) غوستاف فون غرنباوم، دراسات في الأدب العربي، ترجمه : إحسان عباس وآخرون، دار مكتبة الحياة، بيروت 1909، ص 140.

(20) حلية المحاضرة، ج2، ص29.

(21) ديوان الأعشى، حققه : محمد محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز 1950م، ص81.

فقال الأعشى[22] :

تبـــدّل بعـــد الصّبَـــا حكمـــة وقنّعـــه الشّيْـــبُ منـــه خمَـــارا

وقال المسيب :

وبيـــداء مجهـــولـــة قُطّعَـــتْ بعـــاهمـــةٍ تستخـــفّ الضّفَـــارا

فقال الأعشى[23] :

وشـــوق علـــوق تنـــاسيتُـــه بجـــوّالـــةٍ تَسْتَخـــفُّ الضّفَـــارا

وقال المسيب :

ترامـي النّسُـــوع بحيـزومهـــا ندوبًـــا وبالـــدّفّ منهـــا سِطَـــارا

فقال الأعشى[24] :

وألـــواح رَهْـــبٍ كـــأنّ النّسُـــو عَ بَيَّـــنَّ في الـــدفّ منهـــا سِطَـــارا

وقال المسيب :

جمـاليـــــة أُجُـــد سَهْـــــوة يـــلاحـــمُ منهـــا التليـــلُ الفقَـــارا

فقال الأعشى[25] :

ودأيًا تـــلاحَكْـــنَ مثـــل الفـــؤو س لاحَمَ منها السَّليلُ (؟) الفقَـــارا

وقال المسيّب :

وبـــان الشّبَـــابُ فـــودّعتُـــهُ وطـــالبتُـــهُ بعـــد عَيْـــنٍ ضِمَـــارَا

---

(22) ديوان الأعشى، ص81.

(23) ديوان الأعشى، ص 83.

(24) ديوان الأعشى، ص 83.

(25) ديوان الأعشى، ص 83.

فقال الأعشى[26] :

ومَنْ لا تُضاعُ لـه ذِمّـةً فيجعلهـا بـين عَيْـنِ ضِمَـارا

وقال المسيب :

كميـت تكـاد وإن لـم تُـذَقْ تُنَشّـي إذا الساقيـان استـدارا

فقال الأعشى[27] :

تكـاد تُنَشّـي ولَـا تُـذَق وتُغْشَـى المفاصـل إفْتَـارَهـا

فالأعشى يستحضر قصيدة المسيّب، ويعيد كتابتها من جديد في سياق متشابه، ويضيف إليها مواقف شعورية شديدة الخصوصية، وما يعنينا هنا هذه المحاكاة التي تعتمد الذاكرة الشّعريّة أو المعارضة القَصْديّة أو الاستيحائية. فهو يقيم حالة اتصال بين الحضور والغياب، أو هو يفرغ شحنات طاقات السياق لأبيات المسيّب في سياق قصيدته الجديدة ليس من خلال الامتصاص والتشرّب وإنما من خلال «الاهتدام».

إنّ كل كلمة في النّص الأدبي، تسبق النّصّ في وجودها، وليس بإمكان شاعر أن يخترع كلمات لم يسبق إليها، ومن ثمّ تنتقل الكلمات الى نصوص أخرى وتحمل معها تاريخها القديم وشحناتها ومدلولاتها، وعندئذ تنفصل عن سياقها القديم وتقع ضمن دوائر جديدة ومدلولات مستحدثة، غير أنّ ما استجلبه الأعشى من شعر المسيّب لم يكن نسيجًا جديدا، ولم يكن تفاعلاً خلاقًا بين النصّ المستحضر من شعر المسيّب بصورة عفوية غير مقصودة، أو بصورة متعمدة مقصودة، وإنما هو استجلاب فجٌ وسطوٌ متعمد. إن أي نصّ لا يمكن أو يولد من فراغ، بل يولد في عالم مليء بالنصوص، والنّص الجديد يحاول إزاحة النصوص قبله

(26) ديوان الأعشى، ص 87.

(27) ديوان الأعشى، ص 355.

من مكانها، ويحاول أن يحلّ محلها، وذلك من خلال الاجترار والامتصاص والحوار والتفاعل، عندئذ قد يقع النصّ الجديد في ظل النصّ السابق له؛ إذا كان أقلّ تأثيرًا وأخفت ضوءًا، وقد يتصارع مع النصوص الأخرى فيتفوّق عليها، ويحلّ محلها، ويجهز عليها؛ وذلك إذا كان أدقّ تعبيرًا، وأصدق تجربة، وآصل أصالة، وأجود سبكا.

وفي حال قصائد الأعشى المجتلبة من شعر المسيّب جاءت هذه النصوص تقليدًا محضًا؛ أو قل: جاءت نسخًا أو سلخًا أو مسخًا لنصوص المسيّب، ولم يتمكّن الأعشى من نقل الصّور والأفكار والإرجاعات نقلاً إيجابيًا تتولّد عنه صور جديدة مبتكرة، وإنما كان ينقل الصور واللغة بدلالاتها الأصلية، ويعيد تسجيلها دون إضافة، ولم يستطع أن يحوّل ما ضمّنه من شعر المسيّب إلى رؤى شعرية جديدة في إطار وظيفي مختلف، وأعتقد أن التقليد قد يشير إلى مرحلة بدائية من مراحل تطور الأعشى الفنيّ، وأنّه بدأ مقلدًا ثم انتهى شاعرًا مبدعًا عندما تحرر من سطوة التأثير المباشر لقصائد المسيّب.

وهذا الضّرب من التقليد الفنّي. أو تقليد التلميذ لأستاذه سمّاه النقّاد العرب «الاهتدام»، وهو أن يأخذ الشاعر شعر غيره ويغيّر في نظمه وتركيبه ويسبكه سبكًا جديدًا، ثم يدّعيه لنفسه، وروى الحاتمي أن ابن هرمة كان يهتدم شعر كثير عزة ويتبع آثاره في المديح والنسيب[28]. وقديما قال طرفة يصف سفينة:

يشق حباب الماء حيزومُها بها كما قسَم التُّرْبَ المُفَايِلُ باليدِ

(28) الحاتمي. حلية المحاضرة، ج2، ص64.

فاهتدمه لبيد فقصّر عنه، وقال :

تشقُّ خمائلَ الدّهنا يداهُ كما لعب المُقامِرُ بالفيَالِ[29]

ويرى ابن رشيق[30] وابن الأثير[31] أن الاهتدام لا يكون إلاّ في ما دون البيت، وكأن الشاعر اللاحق يهدم بيت الشاعر السابق فيتداعى بناؤه وينهدم معناه، وقد زعم قوم أن هذا من توارد الخواطر وتساوي الضمائر ويسمّونه «المواردة» قال المظفر العلوي[32] : وإنما سمّوه تواردًا أنفة عن ذكر السرقة، وتكبّرًا عن السّمة بها. ومن مثل هذا التوارد أو هذا الاهتدام قول المسيّب بن علس[33] :

إني امرؤ مهدٍ بغيبٍ تحيةً إلى ابن الجُلَنْدَى فارس الخيل جَيْفَرِ
بها تُنقَضُ الأحلاس والدّيكُ نائم إلى مُسْنِفَاتٍ آخر اللّيل ضُمَّرِ

فقال الأعشى[34] :

وإنّ عتاق العيس سوف يزوركم ثناءً على أعجازهنّ مُعَبَّقُ
به تنْقُضُ الأحلاس في كل منزلٍ وتُعْقَد أنساع المَطيّ وتُطلقُ

ويضمن الأعشى بيتين من قصيدة للمسيّب بن علس ويدخلهما في القصيدة التي أدخل فيها المعنى السابق، وقد تنبه إلى هذا «الاستلحاق» ونبه اليه الحاتمي[35]. قال الأعشى[36] :

---

(29) الحاتمي، حلية المحاضرة، ج2، ص45.

(30) ابن رشيق، العمدة، ج2 ص139.

(31) ابن الأثير، كفاية الطالب، حققه : نوري القيسي وحاتم الضامن وهلال ناجي، منشورات جامعة الموصل، ص119.

(32) المظفر العلوي، نضرة الإغريض، حققه : نهى عارف الحسن، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، 1976م، ص218.

(33) الصبح المنير في شعر أبي بصير، مطبعة بيانه 1927م، ص351.

(34) ديوان الأعشى، ص 259.

(35) الحاتمي، حلية المحاضرة، ج2، ص251.

(36) ديوان الأعشى، ص257.

إذا حاجةٌ ولّتكَ لا تستطيعها فخذ طرفًا من غيرها حين تَسْبِقُ
فذلك أدنى أن تنال جسيمها وللْقَصْد أبقى في المسير وألحقُ

وهذان البيتان للمسيّب بن علس، وقد أكّد ذلك الحاتمي.

وقال المسيّب[37] :

بانت وصَدْعٌ في الفؤاد بها صَدْع الزجاجة ليس يَتَّفِقُ

وهذا المعنى أعجب به الأعشى إعجابًا شديدا، وظلت صورة الزجاجة التي لا يلتئم صدعها تلحُّ على خياله في صور شتّى، قال[38] :

فاصبري النفس إن حُمَّ حقٌّ ليس للصَّدْع في الزجاج اتّفاقُ

وقال الأعشى أيضا[39] :

فبانت وقد أورثت في الفؤا د صَدْعًا يخالط عَثَّارَهَا
كصَدْع الزجاجة ما يستطيع من كان يَشْعَبُ تَجْبَارَهَا

وقال الأعشى[40] :

أوَ لَنْ يُلاَحَمَ في الزُّجا جة صَدْعُها بعصابها

وقال أيضا[41] :

بانت وقد أورثت في الفؤا دَ صَدْعًا على نأيها مستطيرا
كَصَدْع الزجاجة ما تستطيع كفُّ الصَّنَاع لها أن تَحِيرا

---

(37) الصبح المنير، ص356.
(38) ديوان الأعشى، ص32.
(39) ديوان الأعشى، ص 353.
(40) ديوان الأعشى، ص 287.
(41) ديوان الأعشى، ص129.

وإذا ما شبّه الشاعر رضاب المحبوبة المسكر اختار له صورة الخمر الممزوجة بماء عذب زُلال، قال المسيَّب[42] :

ومَهَا يرفٌ كأنّه إذْ ذقتَه عانيَّةٌ شُجَّت بماء يَراع

أخذ هذه الفكرة الأعشى، فقال[43] :

ومَهَا تَرِفٌ غُرُوبُهُ يُشْفِي المُتَيَّمَ ذا الحَرَارَهْ

وقال المسيَّب[44] :

كأنّ على أنسائه عِذْقٌ خَصْبَةٍ تدلّى من الكافور غير مُكَمَّمِ

فقال الأعشى[45] :

كأنّ على أنسائها عذقٌ خَصْبَةٍ تدلّى من الكافور غير مُكَمَّمِ

وقال المسيّب[46] :

أرتك بذات الضّال منها معاصمًا وخدّا أسيلاً كالوذيلة ناعما

فقال الأعشى[47] :

وأرتك كفّا في الخضَا ب ومعصمًا مِلْء الجِبَارَهْ

وقال المسيّب[48] :

إذ هي كالرشإ المخروف زَيَّنَها مُكَرْدَسٌ كَطِلاَءِ الخمرِ منظوم

---

(42) الصبح المنير، ص254.
(43) ديوان الأعشى، ص 189.
(44) الصبح المنير، ص 359.
(45) ديوان الأعشى، ص155.
(46) الصبح المنير، ص358.
(47) ديوان الأعشى، ص189.
(48) الزاهر، ج1، ص 481.

فقال الأعشى[49] :

فيهنّ مخروف النواصف مسـ ـروق البُغَار شادنٌ أكْحَلْ
يرعى الأراك ذا الكَباث وذا الـ ـحَمْرْد وزَهْرًا نبتهنّ خَضِلْ

وقال المسيَّب[50] :

كجمانة البَحْريّ جاء بها غَوّاصُها من لُجّة البَحْر
أشفى يمجُّ الزيت ملتمسٌ ظمآن ملتهبٌ من الفَقْر
قتلتْ أباه فقال أتْبعُه أو أستفيدُ رغيبةَ الدهر
وترى الصَّرَاري يسجدون لها ويضمّها بيديه للنَّحْرِ
فتلك شِبْه المالكيّة إذ طلعتْ ببهجتها من الخِدْرِ

فقال الأعشى[51] :

كأنّها درّة زهراء أخرجها غَوّاصُ دارين يخشى دونها الغَرَقا
قد رامها حِجَجًا مذْ طُرَهَ شاربه حتى تَسَعْسَعَ يرجوها وقد خَفَقَا
لا النَّفْسُ تُونِسُهُ منها فيتركها وقد رأى الرَّغْبَ رأى العَيْنِ فاحْتَرَقَا
في حَوْمِ لُجَّةِ آذيٍّ له حَدَبٌ من رامها فارقته النفس فاعتلقا
من نالها نال خُلْدًا لا انقطاع له وما تمنّى فأضحى ناعما أنقَا
تلك التي كَلَّفَتْكَ النفسُ تأمُلُهَا وما تَعَلَّقْتَ إلاّ الحَيْن والحَرَقا

وأشار المسيَّب بن علس في إحدى قصائده الى قصة «طسم وجديس» وكانت هاتان القبيلتان قد سكنتا «اليمامة» وكان اسمها وقتذاك «جَوّا» وكانت السيادة في طَسْم، وانتهى المُلْك فيها الى رجل ظالم، فائتمرت به جديس، فقتلوه، وأفنوا قومه، واستنجد من بقي منهم بتبّع

---

(49) ديوان الأعشى. ص311.
(50) الصبح المنير. ص252.
(51) ديوان الأعشى. ص 403.

حسّان بن عمرو ملك اليمن، فسار بجيشه، ولمّا اقترب منهم، تخفّى جيشه، وحمل كلُّ رجل منهم غُصْنًا، فلمّا نظرت «اليمامة» من فوق حصن من حصونهم، قالت : أرى رجلاً في شجرة، معه كَتِفٌ يتعرّقها، أو نَعْلٌ يَخْصِفُها، وأخبرتهم أنّ حميرا تغزوهم، فكذّبوها، وصدّقوا قول كاهنهم «سطيح الذئبي» فوطنهم حسان بجيشه فأفناهم، وهدم قصورهم وحصونهم، وصَلَبَ «اليمامة» على باب «جَوَ» بعد أن سَمَلَ عينيها، فسُمّيت «جَوّ» من ذلك الوقت «اليمامة» على اسم هذه المرأة[52] قال المسيَّب من قصيدة لم يبق منها سوى هذه الأبيات[53] :

لقد نظرت عنزٌ إلى الجَزْع نظرةً ... إلى مثل موج المُفْعَم المتلاطم
إلى حمير إذ وجّهوا من بلادهم ... تضيقُ لهم لأيا فروج المخارِم
رأت فوق رأس الكَلْب شَخْصًا بكَفّه ... على البُعْد كِنْفٌ أو خصيفة لاحِم

ولا شك أن هذه القصيدة مبتورة، أعاد الأعشى صياغة أفكارها بألفاظ مشابهة، من مثل قوله[54] :

إذ نظرت نظرةً ليست بكادبة ... إذ يرفَعُ الآلُ رأس الكَلْب فارتَفَعَا
قالت أرى رجلاً في كفّه كتِفٌ ... أو يَخْصِفُ النَّعْل لهفي أيةً صَنَعَا

ويقول المسيَّب بن علس[55] :

يهب الجياد كأنّها عُسُبٌ ... جُرْدًا أطار نسيلها البقلُ
والضامرات كأنها بَقَرٌ ... تقرو دكادك بينها الرَّمْلُ
والدّهمَ كالعَيْدَان آزرها ... وسْط الأشاء مُكَمَّم فَحْلُ

---

(52) انظر هذه الحكاية في تاريخ الطبري، ج1، ص451 ـ 453، والكامل لابن الأثير، ج1، ص203 ـ 205 والسيرة ج1، ص 15 ـ 19.

(53) الصبح المنير، ص 359.

(54) ديوان الأعشى، ص 139.

(55) الصبح المنير، ص357.

ويقول المسيّب أيضا[56] :

هو الواهب المائة المصطفاة تجاوبُ منها العشارُ الفصالا
وكل أمين الشَّظَا سابحَ يقطع منه النَّحيط الجلالا

وهذان المعنيان يكررهما الأعشى ولا يملُّ من تكرارهما في شعره، قال[57] :

هو الواهب المائة المصطفا ة كالنخل زينها بالرَّجَنْ
وكل كميتٍ كجذْع الخِصَا ب يرنو القناءَ إذا ما صَفَنْ

وقال أيضا[58] :

هو الواهب المائة المصطفا ة كالنخل طاف بها المُجْتَرمْ
وكل كميت كجذع الخِصَا ب يَرْدي على سَلِطَاتٍ لُثُمْ

ومثلما يسجد الملآحون للدّرة في قول المسيَّب[59] :

وترى الصراري يسجدون لها ويضمّها بيديه للنَّحرِ

يسجد القوم لممدوحي الأعشى، قال[60] :

فلمّا أتانا بُعَيْد الكَرَى سجدنا له ورفعنا عَمَارَا

وقال الأعشى أيضا[61] :

من يلق هوذةَ يسجد غير متَّئبٍ إذا تعصَّب فوق التاج أو وَضَعَا

---

(56) الإكليل للهمداني، ج2، ص307.
(57) ديوان الأعشى، ص 75.
(58) ديوان الأعشى، ص 75.
(59) الصبح المنير، ص 352.
(60) ديوان الأعشى، ص101.
(61) ديوان الأعشى، ص 157.

وممدوح المسيَّب يضع تاجًا يزيده مهابة، قال[62] :

إذا ما انتضى التاج فوق السرير فلن يَعْدل الناس منه قبالا

وممدوح الأعشى يخشع الناس له ولتاجه، قال[63] :

فإذا رأوه خاشعًا خشعوا لذي تاج حُلاحلْ

وممدوح المسيَّب يشبه الهلال، قال[64] :

تخلَّق في البيت من حاشدٍ تراه البريَّةُ فيها هلالا

وتأتي صورة الملوك في شعر الأعشى بصورة الهلال أيضا، قال[65] :

إلى ملك كهلال السما ء أزكى وفاءً ومجدًا وخيْرَا

وقال المسيَّب[66] :

فرأيتُ أنّ الحُكْمَ مُجْتَنبُ الصِّبَا وصَحَوْتُ بعد تَشَوُّقٍ ورُواعِ

فالتقط الأعشى هذه الفكرة وكرّرها في أكثر من موضع قال[67] :

تَبَدَّل بعد الصِّبَا حكمة وقَنَّعه الشيب منه خِمَارَا

وقال أيضا[68] :

وما خِلْتُ أن ابتاعَ جهلاً بحِكْمةٍ وما خلتُ مِهْرَاسًا بِلادي وماردا

---

(62) الإكليل، ج2، ص306.
(63) ديوان الأعشى، ص375.
(64) الإكليل، ج2، ص306.
(65) ديوان الأعشى، ص133.
(66) الصبح المنير، ص 354.
(67) ديوان الأعشى، ص18.
(68) ديوان الأعشى، ص101.

وقال المسيَّب[69] :

لعمري لئن جَدَّت عداوةُ بيننا لينتحيَنْ منّي على الوَخْمِ ميسمُ

فقال الأعشى[70] :

لئن جَدَّ أسباب العداوة بينا لترتحلن منّي على ظهر شَيْهَمِ
فأقسمُ إن جَدَّ التقاطع بيننا لتصطفقَنْ يومًا عليك المآتمُ

وقال المسيَّب[71] :

عانيَّة صِرْف معتَّقة يَسْعَى بها ذو تُومَةٍ لَبِقُ

فقال الأعشى[72] :

يسعى بها ذو زجاجات له نُطَفٌ مقلّصٌ أسفل السربال معتملُ

وقال المسيَّب[73] :

وما مُزْبِدٌ من خليج الفرات يَحُطُّ الصخورَ ويعلو الجبالا
يكُبّ السفين لأذقانها ويصرع بالعَبْرِ أثْلاً وضالا
بأجود منه إذا جئتَهُ على حادث الدهر يومًا نوالا

فالتقط الأعشى هذه الصورة وكرّرها في أكثر من موقف، قال[74] :

وما مُزْبِدٌ من خليج الفرا ت جَوْنٌ غواربُهُ تلتطمْ
يكُبُّ الخليَّةَ ذات القلا ع قد كاد جؤجُؤُها ينْحطمْ
بأجود منه بماعونه إذا ما سماؤهُمُ لم تَغَمْ

---

(69) الصبح المنير، ص385.
(70) ديوان الأعشى، ص 161 وص115.
(71) الصبح المنير، ص356.
(72) ديوان الأعشى، ص95.
(73) الإكليل للهمداني، ج2، ص 306.
(74) ديوان الأعشى، ص75.

وقال الأعشى أيضا[75] :

وما مزبدٌ من خليج الفرات ... ت يغشى الإكام ويعلو الجُسُورا
يَكُبُّ السفينَ لأذْقَانِه ... ويَصْرَعُ بالعَبْرِ أثلاً ودورا
بأجودَ منه بما عنده ... فيعطى المئين ويعطي البدورا

وقال الأعشى أيضا[76] :

وما رائحٌ روّحته الجنوب ... يروّي الزُّروعَ ويعلو الديارا
يكُبُّ السفين لأذقانها ... ويَصْرَعُ بالعَبْر أثلاً وزارا
بأجودَ منه بأدم العشا ... ر لَطّ العلُوق بهنّ احْمِرَارا

فالأعشى الراوية لا يستطيع الفَكَاك ممّا اختزنته ذاكرته من شعر خاله، فهو يجتلب نماذجه وألفاظه وصياغته ومعانيه ـ عن وعي أو لا وعي ـ ويعيد بناءها، غير أن ضياع أكثر شعر المسيَّب أفقدنا فرصة استكشاف ما أدخله الأعشى في شعره من شعر خاله، والمقارنة بين الشاعرين على نحو أوْفَى، وفي ضوء أشتات من شعر المسيَّب يمكن أن نلحظ التأثّر واضحًا ولم يكن النقّاد مبالغين عندما قَرَّروا أن الأعشى كان يتكئ على شعر المسيَّب، وأنه كان يحاكيه أو ينظم على مثاله، وأنه كان يَستَلْحِق شعره ويضمّه الى قصائده، أو كان يَعرُد شعره ـ على حدّ تعبير أحمد بن أبي طاهر ـ فقد استلحق الأعشى جُلّ القصيدة الرائية ذات المطلع :

أصَرمتَ حَبْل الوَصْل من فِتْرِ ... وهَجَرْتَهَا ولَجَجْتَ في الهَجْرِ

---

(75) ديوان الأعشى، ص12.

(76) ديوان الأعشى، ص87.

فاختلط الأمر على الرواة، فكان أبو عبيدة يروي هذه القصيدة لأعشى بكر، وكذلك فعل ابن دريد والبغدادي[77].

ويروي البغدادي أربعة عشر بيتًا من القصيدة نفسها وينسبها للأعشى[78]، ثم يعود وينسبها للمسيّب بن علس، ويقول : وأبيات المسيَّب هذه من قصيدة مدح بها قيس بن معديكرب الكندي، ورويت لابن أخته الأعشى ميمون، وهي ثابتة في ديوانه أيضا.

ومن هذه القصيدة قول المسيَّب :

ولأنـــت أشجـــع من أسامـــة إذ نقـع الصّراخ ولُـــجَّ في الذُّعْـــرِ

ثم يقول البغدادي : وبيت المسيَّب على ما رتّبناه هو رواية الجاحظ في البيان والتبيين، وقد رأيت البيتين في ديوانهما (المسيَّب والأعشى) وكان الأعشى رواية المسيَّب بن علس والمسيَّب خاله، وكان يطرد شعره ويأخذ منه[79].

واستلحق الأعشى مقطوعة أخرى للمسيَّب وأدخلها في قصيدته ذات المطلع :

أرقتُ وما هذا السهاد المورّق وما بيَ من سقم وما بيَ مَعْشَقُ

وقد نبه الحاتمي الى هذا الاستلحاق في حلية المحاضرة[80].

ويبدو أن ظاهرة استعارة صور الشعراء ومفرداتهم وتراكيبهم وأبيات من أشعارهم، كانت شائعة في العصر الجاهلي، ومن ثمّ حاول

---

(77) البطليوسي، ابن السيد، عبد الله بن محمد (ت 521 هـ) الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، ص378. والبغدادي، الخزانة، ج1، ص542 وج3، ص236.

(78) البغدادي، خزانة الادب، ج3، ص236 ـ 24.

(79) البغدادي، خزانة الأدب، ج2، ص236 وج6، ص325 وج6، ص316 ـ 319.

(80) ج2، ص251، وديوان الأعشى، ص257.

النقّاد الأقدمون ضبط هذه الظاهرة وبيان ما يجوز فيها وما لا يجوز ؛ بما يؤكد قبولهم لها طائعين أو مكرهين فقد عرض ابن سلام الجمحي لبيت استزاده الزّبرقان بن بدر من شعر النابغة الذبياني، وقال[81] : وقد تفعل ذلك العرب، ولا يريدون به السرقة.

وقال الحاتمي[82] : وربما اجتلب الشاعر البيت ليس له فاجتذبه من غيره، فيورده في شعره على طريق التمثيل به، لا على طريق السَّرق له، كقول النابغة :

تمزَّزتها والديك يدعو صباحه إذا ما بنو نعش دنوا فتصوّبوا

فقال الفرزدق، واجتلب بيته :

وإجانة ريّا الشروب كأنّها إذا اغْتَمسَتْ فيها الزجاجة كوكبُ
تمزَّزتها والديك يدعو صباحه إذا ما بنو نعش دنوا فتصوبوا

فلم يَسْلُبْهُ، ولا حاول هذا مغيراً عليه، وإن كانت الغارة عادته، ولا أراه أورده الاّ اجتلاباً واستلحاقا. وكان أبو عمرو بن العلاء لا يرى ذلك سرقا، ووجدت يونس بن حبيب وغيره من علماء الشعر يسمّي البيت يأخذه الشاعر على طريق التمثيل فيدخله في شعره «اجتلاباً واستلحاقاً، فلا يرى ذلك عيباً، وإذا كان الأمر كذلك ـ فلعمري ـ إنه لا عيب فيما هذه سبيله.

ويميز ابن الأثير بين الأصْطِرَاف والاستلحاق والانتحال، فيقول[83] : الاصطراف أن يعجب الشاعرَ بيتٌ فيرى أنّه أولى به من قائله (؟؟)

---

(81) ابن سلام الجمحي : طبقات فحول الشعراء، ج1، ص58.
(82) الحاتمي، حلية المحاضرة، ج2، ص58.
(83) ابن الأثير : كفاية الطالب، ص114.

فيصرفه إلى نفسه، ولا يكون إلاّ في شعر الأموات، فإن صرفه على جهة المَثَل فهو اجتلابٌ واستلحاق، وإن ادّعاه جملة فهو انتحال.

ويحاكي الأعشى خاله في بناء القصيدة الفنّي والموضوعي، فأكثر قصائد المسيَّب تبدأ بإعلان رحيل المحبوبة أو تباعدها لتورث حزنًا مُمِضًا في قلب الشاعر، أو تبدأ القصيدة بإعلان رحيله عن المرأة دون إنذار، قال المسيَّب[84] :

أصرمت حبل الوصل من فتر وهجرتها ولججت في الهجر

وقال[85] :

أرحلت من سلمى بغير متاع قبل العطاس ورعتها بوداع

وقال[86] :

بأن الخليط ورُفِّع الخُرُق ففؤاده في الحيّ معتلق

وقال[87] :

بكرت لتحزن عاشقًا طَفَلُ وتباعدت وتَخَرَّم الوَصْلُ

وقد يبدأ المسيَّب قصيدته بوصف الخمر ومجلس الشراب، كقوله[88] :

وشَرْبٍ كرامٍ حسان الوجوه تغاديهم النشوات ابتكارا

وهذه المطالع تتكرّر في شعر الأعشى تكرارًا ينبئ عن تأثره بشعر المسيَّب، قال الأعشى[89] :

(84) الصبح المنير، ص351، 254، 355، 357، وحلية المحاضرة 29/2.
(85) الصبح المنير، ص354.
(86) الصبح المنير، ص355.
(87) الصبح المنير، 357.
(88) حلية المحاضرة، 29/2.
(89) ديوان الأعشى، ومطالع القصائد مرتبة : ص 63، 81، 225، 349، 379، 71.

رحلت سميّـة غـدوة أجمالهـا غضبـى فمـا تقـول بـدا لهـا
أأزمعـت من آل ليلـى ابتكـارا وشطّـت على ذي هوى أن تـزارا
بانت سعاد وأمسى جبلها انقطعـا واحتلّت الغمر فالجُدَيْـن فالفَرَعَـا
أترحـل من ليلـى ولمّـا تـزوّدِ وكنت كَمَنْ قَضّـى اللُّبانَـة من دَدِ
أذنَ اليـوم جيرتـي بحفـوف صرمـوا حبـل آلف مألـوف
أتصـرم ريّـا أم تديـم وصالهـا بل الصَّرْمَ إذ زُمّتْ بليل جمالهـا
أتهجـر غـانيـة أم تُلـمْ أم الحبْـل واه بهـا منجـذمْ

وبعد المقدمة يصف المسيَّب المحبوبة وقد يشبّهها بالدرّة، وريقها العذب كأنما خلط بخمر صافية، وقد يصف الظعائن المرتحلة، وغالبًا ما يشبّهها بالنخل السامق الذي زهت أعذاقه، ثم ينطلق على ناقته الجَسْرَة لينسى همومَهُ، ثم يعدّي عنها بعد أن يستكمل وصفها إلى الممدوح الذي يصفه بالحلم والشجاعة والوفاء والسماحة وقد يشبهه بالأسد ويعرض لهباته من الإبل الغزار الجسيمة والخيل المطهّمة، ويهتمّ بأن يشبّه عطاءه بنهر متبعّج يفيض دون انقطاع، أو بالخليج المفعم الذي تتدافع أمواجه.

وهذا البناء العام للقصيدة عند المسيَّب نراه يتكرر في أكثر من عشرين قصيدة من قصائد الأعشى.

وفي وصف المرأة يركز المسيَّب على صفة رئيسة. وهي صفة الثغر البرّاق، طيّب النكهة، ذي الثنايا البيض، ويشبه ريقها بالخمر الطيبة أو الماء البارد الذي أدرّته رياح الصَّبَا، قال[90]:

إذ تستبيـك بأصلتـي نـاعـم قامـت لتفتنَـه بغيْـر قنـاع
ومهًـا يـرفُّ كـأنّـه إذ ذقتـه عانيَّـة شُجّـتْ بمـاء يـراع
أو صوبُ غاديـة أدرّتـه الصَّبَـا ببزيل أزهـرَ مُدْمَـجٍ بسيَـاع

(90) الصبح المنير، ص 354.

ويقول أيضا[91] :

وكـــأنّ غـــزلان الصرائـــم إذ مَتَّـــع النهـــار وأرشـــق الحـــدق
ومهـــا يـــرفٌ كأنّـــه بَـــرَدٌ نَـــزَلَ السحابـــة مـاؤه يَـــدِق
عـانيّـــة صِـــرْف معتّقـــة يَسْعَـى بهـا ذوتـومـــة لَبِـــقُ

ويقول أيضا[92] :

كـــأنّ السُّـــلافَ بأنيـــابهـــا يخالـــط في النَّوم عَذْبًـــا زُلالا

وهذه الأوصاف مكرورة في شعر الأعشى، كقوله[93] :

وكأنّ الخَمْـرَ العتيـق من الإسفِـنْـ ـط ممـــزوجـــةً بمـــاء زُلالِ

وقال يصف ريقَها[94] :

صهباء صافيـــةً إذا ما استودفَـــت شُجَّت غَـوارِبُهـا بمـاءِ غَـــوادِي

وقال الأعشى[95] :

ومهَـــا تـــــرفٌ غُروبُـــهُ يشفـي المتيَّـــــم ذا الحـــرارهْ

وقال أيضا[96] :

كـــأنّ جنيّـــا مـن الزَّنجبيـــ ـل خالط فاهـا وأرْيًـا مَشُـورا
واسفنـــط عَـانَـــة بعد الرقـــا د ساق الرّصـاف إليهـا غـديـرا

ويشبه المسيَّب المرأة بالجمانة التي شقي الغواص في البحث عنها، ويستطرد إلى وصف صيد اللؤلؤ، ويأتي الأعشى فيجعل محبوبته، درة

---

(91) الصبح المنير، ص 356.
(92) الإكليل، ج2، ص306.
(93) ديوان الأعشى، ص41.
(94) ديوان الأعشى، ص165.
(95) ديوان الأعشى، ص189.
(96) ديوان الأعشى، ص129.

زهراء أخرجها غواص دارين بعد أن رامها سنين طويلة، غير أنه غامر فاستخرجها من أعماق بحر تعتلق روح من غاص فيه[97] وكان المسيّب كغيره من فتيان البادية كَلِفًا مستهترا بشرب الخَمْر، يلهون بها، ويقضون يتمزّزها أوقات فراغهم، وينسون مشكلات الحياة ومعمّياتها، وفي وصفه نحسّ غَرَامًا وكَلَفًا بهدا الشراب السّحري وما يفعله بالعقول اليقظة، كقوله[98] :

وصَهْبَاءَ يستوشي بذي اللُّبّ مثلها ... قرعتُ بها نفسي إذا الديك أعتما
تمزّزتها صِرْفًا وقارعت دنّها ... بعود أراك بعده فترنّما

وقوله[99] :

وشَرْبٍ كرام حسان الوجوه ... تغاديهم النشواتُ ابتكارا
كميت تكاد وإن لم تذق ... تُنَشّي إذا السّاقيان استدارا

وأمّا الأعشى فقد ملكت الخمر لبّه وألهمته شعرًا وسحرًا وجعلت منه شاعرًا لا يُجَارى في وصفها، وهو بلا شك زعيم الخمريات في الأدب العربي، وربّما جاءته هذه العدوى من خاله الذي لم ينكر فعلها بالعقول وإنّما استحسنها ووصفها وسقاتها، ونقل فنّه في وصفها إلى فنان أبدع وأطرب وتفوّق على أستاذه.

وينتقل المسيّب بن علس بعد ذلك إلى الحديث عن الرحلة على الناقة، ودائما نراه يرى في الناقة السلوى من الهموم، والعزاء من الآلام، ووسيلة نسيان المرأة، قال[100] :

---

(97) ديوان الأعشى، ص 304.
(98) الصبح المنير، ص358.
(99) حلية المحاضرة 29/2.
(100) الصبح المنير، ص 354.

فَتَسَلَّ حاجتها إذا هي أعرضت بخميصةٍ سُرُح اليديْنِ وساع

ثم يستطرد إلى وصف أعضاء الناقة، ويهتم بإبراز عنصرين أساسيين : السرعة التي لا تجارى والقدرة على اجتياز المفازات المترامية، والصلابة التي تمكن الناقة من الصمود والمقاومة. وقد يستطرد إلى وصف الإبل بالنخل المكمّم أو بالأشاء المنبّق، قال[101] :

ببيداء مجهولة قطّعت بعاهمة تستخف الضّفارا
ترامي النسوع بحيزومها ندوبًا وبالدّف منها سطارا
جمالية أجُدٌ سهوةٌ يلاحمُ منها التليل الفقارا

ويكرر الأعشى هذه الصور في أكثر من موضع من قصائده[102].

ويرحل المسيَّب إلى الحواضر المجاورة، وتتشابه حياته وحياة ابن أخته في أن كليهما كان يعيش حياة مضطربة غير مستقرة، فيها مغامرة ومفاجأة ورحلات وتطواف واغتراب، وبحث عن حياة المجد والقصور والعطايا. فقد رحل المسيَّب إلى اليمن ليلقى هناك قيس بن معديكرب الكندي ملك اليمن فيمدحه، ويمدحه الأعشى بسبع قصائد أيضا.

ويمدح المسيَّب زيد بن قيس بن زيد بن مرب ملك حضرموت، وليس في ديوانه الأعشى ما يشير إلى أنه التقاه أو التقى أحدًا من أولاده.

ويرحل المسيَّب إلى غربي الجزيرة ليمدح حسانًا الطائي وعمارةبن زياد العبسي، ثم يرحل إلى شرقيها ليمدح القعقاع بن معبد بن زرارة زعيم تميم ومالك بن سلمة الخير القشيري.

---

(101) حلية المحاضرة، 30/2.

(102) انظر ديوان الأعشى، القصائد ا بيت 25، 29 بيت5، ث13 ب26، ق15ب8، ق11ب12، ق27ب8، ق4ب40، ق65ب23، ق33ب27.

ثم يرحل الى عُمان ليمدح الجُلَنْدَى بن مَعْولَة ملك عُمان، وبعد وفاته يمدح ابنه جيفر بن الجلندى.

ولا شكّ أنه قصد الحيرة ليلتقي عمرو بن هند (ت568م) ويقال أنه اجتمع ببلاطه بالمتلمس وطرفة، وربما تكون القصيدة التي يقول فيها :

يابـــن الـــذي دان لعـزهـــمُ بَـذخُ الملـــوكِ ودانـــت السُّـــوقُ

أو في مديح ملك العرب النعمان بن المنذر الذي حكم من سنة 585م ـ 613م. وهو فارس اليحموم[103] المذكور في قوله :

أو فـــارس اليحمـــوم يتبعهـــم كالطَّلْـــق يتبـــع ليلـــة البَهْـــرِ

أمّا الأعشى فقد رحل إلى الحيرة والعراق ليمدح النعمان بن المنذر، والأسود بن المنذر وإياس بن قبيصة.

ويرحل إلى اليمامة ليمدح ملك اليمن قيس بن معديكرب، ويزور نجران ليمدح يزيد بن عبد المدان، ويرحل إلى عُمان ليمدح الجُلَنْدَى بن مَعْوَلة.

ومن ثمَّ فإنّ ما رواه ابن سلام وكرره ابن رشيق من أنّ الأعشى أول مَنْ سألَ بشعره[104]، لا يثبت عند التحقيق العلمي ؛ فخاله كان زعيمًا من زعماء التكسُّب بالشّعر.

وفي مدائح المسيَّب نرى الممدوح سمحًا، جوادًا، شجاعًا، بليغًا يصل الأرحام. ويتّصف بالرئاسة والقيادة، كفّاه متلفة ومخلفة يهب الجياد

---

(103) البغدادي ، الخزانة، ج3، ص238.

(104) ابن سلام الجمحي ، طبقـــات فحول الشعـــراء، ج1، ص67، وابن رشيق ، العمـــدة ج1، ص64.

الضامرات والنوق السمينات الجميلات، وهي صفات عامة نجدها مكررة في الشعر الجاهلي. ويهتمّ المسيَّب بإبراز تدفق عطاء الممدوح ويشبّهه بتيار ذي حَدَب تمدّه جداول كثيرة فيتحول نهرًا دافقًا، أو هو كخليج مفعم لا ينقطع تدافُعُه، قال المسيَّب[105] :

ولأنت أجود من خليج مفعم ... متراكم الآذيّ ذي دُفّاعِ
وكأنّ بُلْقَ الخيلِ في حافاتِهِ ... يرمي بهنّ دواليَ الزّرّاعِ

وقال أيضا[106] :

بحر من المدّاد ذو حَدَبٍ ... سهل الخليقة ما به غَلَقُ

وقال[107] :

متبعّج التيّار ذو حَدَبٍ ... مُغْرَوْرِبٌ تيّاره يعلو

وقال أيضا[108] :

وما مزيد من خليج الفرات ... يحطُّ الصخور ويعلو الجبالا
يكبُّ السفين لأذقانها ... ويصرعُ بالعَبْر أثلاً وضالا
بأجود منه إذا جئته ... على حادث الدهر يوما نوالا

وهذه المعاني مكررة في شعر الأعشى في أكثر من اثنتي عشرة قصيدة[109] كقوله[110] :

---

(105) الصبح المنير، ص355.
(106) الصبح المنير، ص356.
(107) الصبح المنير، ص358.
(108) حلية المحاضرة 29/2.
(109) ديوان الأعشى، ص65، 75، 135، 145، 229، 333، 375، 133.
(110) ديوان الأعشى، ص135.

وما مزيد من خليج الفرا ت يغشى الإكام ويعلوم الجسورا
يكبّ السفين لأذقانه ويصرع بالعبْر أثلاً ودورا
بأجود منه بما عنده فيعطي المئين ويعطي البدورا

وقد أكسب هذا التطواف المسيَّب بن علس ثقافة تاريخية، وخبرة جغرافيّة، وحكمة عقليّة، ومن ثمَّ تتردّد في شعره صور الأمم القديمة وحضاراتها وأساطيرها وموروثاتها التي بادت واندثرت، ويأتي بهذه الصور في مجال التأسي والتعزّي والاعتبار؛ لأن تلك الصور وتلك الأحداث لم تمح من ذاكرة التاريخ. ففي القصيدة البائية يتحدث المسيَّب عن هموم قبيلة ضبيعة، وما آلت إليه من ضعف وهو أن أصبح أبناء القبيلة عبيدا لبني شيبان أو لأربابهم - على حد قوله - وتفرّق الأحلاف عنهم، وأصبحوا لقمة سائغة لكل طامع، أذلاّء مهينين، لا يثورون على ضيم، تضرب أنوفهم فلا يغضبون، ويشير إلى ذلك اليوم المشؤوم الذي جعلهم على هذه الصورة المزرية[111]:

ويوم العِيَانَة عند الكثيب (م) يومٌ أشائمه تَنْعَبُ

وكانت ضبيعة قد حالفت بني ذهل بن شيبان على قارة «عَرْوى» بأن يبقوا متحالفين ما بقيت «عروى» فنقضوا حلفهم[112]، ثم لم تلثبت أن حاربت شيبان ضبيعة، وأوقعت بهم مقتلة كبيرة.

ويطلب المسيَّب من قومه الرحيل عن دار قوم غدروا بحلفائهم ونقضوا مواثيقهم وخذلوا جيرانهم، قال[113]:

---

(111) الصبح المنير، ص 350.
(112) البكري، معجم ما استعجم، ص936.
(113) الصبح المنير، ص349 - 35.

وسيروا فأنّى لكم بالرضى عرانين شيبان أن تقربوا
وهل يجلس القوم لا ينكرو ن وكُلُّهم أنفُه يُضْرَبُ

ويضرب لهم مثلاً من التاريخ، فقد كان «سامة بن لؤي بن غالب القرشي» في قومه، فساموه خسفًا، فخرج من الحرم في مكة، ونزل عُمان، وهناك عاش كريمًا غير مهين، وصار «بنو سامة بن لؤي» بعُمان حيًا حريدًا شديدًا، ولهم مَنَعة وثروة، يقال لهم «بنو ناجية»[114]، قال المسيَّب[115] :

وقد كانَ «سامةُ» في قومه له مأكل وله مَشْرَبُ
فساموه خسفًا فلم يَرْضَه وفي الأرض عن خسفهم مذهبُ
فقال لسامة إحدى النسا ء مالك يا سَامَ لا تركَبُ
أكل البلاد بها حارس مطل وضرغامة أغلبُ
فقال : بلى، إنني راكب وإني لقومي مستعتبُ
فشدّ أمونًا بأنساعها بنخلة إذ دونها كبكبُ
فلمّا أتى بلدًا سرّه به مرتع وبه معزبُ
وحصن حصين لأبنائهم وريف لإبلهمُ مخصب

ثم تذكّر قومه بعد أن أثرى وقويت شوكته، فعاد إلى وطنه معزّزًا مكرّمًا ... ثم يذكر المسيَّب رحلة «سامة» الخيالية في السموات العُلى، وهي رحلة سقطت من ذاكرة التاريخ لا نجد لها إشارة إلاّ في قول المسيَّب :

ولم ينه رحلتهم في السما ء نحس الخراتين والعقربُ
حين النهار يرى شمسه وحينًا يلوح بها كوكبُ

(114) البكري، معجم ما استعجم، ص46 ـ 47.
(115) الصبح المنير، ص350.

ويستمدُّ المسيَّب بن علي من قصة فناء طسم وجديس وحديث زرقاء اليمامة[116] موضوعا لقصيدته الضائعة التي لم يبق منها سوى أشلاء ممزّقة أشرت إليها في موضع سابق من هذا البحث، وممّا بقي من شعره في هذه الأسطورة قوله[117] :

لقد نظرت عنز الى الجَزْع نظرة ... إلى مثل موج المفعم المتلاطم
إلى حمير إذ وجّهوا من بلادهم ... تضيق لهم لأيًا فروج المَخَارِم
رأت فوق رأس الكلب شخصًا بكفّه ... على البعد كِنْفٌ أو خَصِيفة لاحِم

ويضرب المسيَّب مثلا لما آلت إليه حالة «حمار بن مويلع» أحد بني «عاد» الذي أصابت أولاده صاعقة فكفر فمَحَقَهُ الله، ويضرب مثلاً بـ «جُنْدَب بن الأصْبَع» الذي رَهَنَه أبوه عند «كسرى» فلقي حتفه هناك، قال[118] :

فلو صادموا الرأس الملفّف حاجبًا ... لَلاقَى كما لاقى الحمارُ وجُنْدَبُ

ويشير المسيَّب إلى قصة أهل الحَضْر، وهي مدينة بإزاء تكريت مبنيّة بالحجارة المهندمة، بها ستون بُرْجًا، وقصور وحمّامات، ويمرّ بها نهر الثرثار، ويقال إنه لمّا افترقت «قضاعة سارت فرقة منهم إلى أرض الجزيرة، وملك عليهم «الضيزن بن جلهمة» وكان ملك الجزيرة إلى الشام، فنزل مدينة «الحَضْر» وكانت قد بنيت وتَطَلْسَمَتْ أن لا يقدر على فتحها ولا هدمها إلا بدم امرأة زرقاء من المدينة، وفي بعض غارات «الضيزن» على بلاد فارس أسر أخت «سابور الجنود بن أردشير الجامع» وهو غير سابور ذي الأكتاف، ثم لم يلبث سابور أن أغار على «الحضْر» وتمكن أخيرا

(116) انظر : السيرة 15/1 ـ 19، وتاريخ الطبري، ج1، ص451 ـ 453.
(117) الصبح المنير، ص359.
(118) المعاني الكبير لابن قتيبة، ص936.

من فك الطّلّسْم، فدخل المدينة وقتل «قضاعة» وأفنى قبائل كثيرة، ويقال : إنه قتل من «قضاعة» نحو مائة ألف رجل[119].

ولم يبق من هذه الحكاية في شعر المسيَّب سوى إشارة عابرة، ضاعت تفاصيلها فيما ضاع من شعره، قال[120] :

وجنـــاه مـــن أفـــق فـــأورده سهل العـراق وكـــان بالحَضْـــر

وتَلقّف الأعشى هذه الحكاية فأوردها بتفاصيلها، وبدأها بقوله[121] :

ألـــم تـــر الحَضْـــرَ إذْ أهلـــه بنُعْمَـــى وهل خـالـــدٌ مَنْ نَعِـــمْ

إلى أنْ قال :

ففـــي ذاك لمـــؤتَسِـــي أسْـــوَةٌ ومـأربُ قَفَّـــى عليهـــا العَـــرِمْ

والرجوع الى المخزون الثقافي والتاريخي للأمم القديمة وعَرْض حكاياتها أكثر منه الأعشى كثرة لا نجدها عند شاعر جاهلي سوى أمية بن أبي الصلت، وأظنه في هذه الناحية كان متأثرا بمنهج خاله، وربما كان محاكيا له، فهو يكرر حكاية طسم وجديس الأسطورية في ثمانية أبيات يختمها بقوله[122] :

فاستنزلوا أهل جَوٍّ من مساكنهـــم وهدّموا شاخص البنيـــان فاتّضعـــا

ويشير في قصيدة أخرى إلى قصص ثمودوعادوما تعرضوا له من الهلاك، فيقول[123] :

---

(119) ياقوت الحموي، معجم البلدان، ج2، ص267 ـ 269.
(120) الصبح المنير، ص353.
(121) ديوان الأعشى، ص79.
(122) ديوان الأعشى، ص139.
(123) ديوان الأعشى، ص317.

ألـم تـــروا إرمّـــا وعـــادا أودى بهـــا الليـــل والنهـــارُ
بـــادروا فلمّـــا تـــآدوا قضّـــى على آثارهـــم قـــدارُ
وحـــلّ بالحـــيّ من جديـــس يـــومٌ من الشـــرّ مستطـــارُ
وأهـــل جـــوّ أتـــت عليهـــم فأفســـدت عيشَهُـــمْ فبـــاروا

ويستمد الأعشى من حكايات الأكاسرة والروم والتبابعة ما يفيد أن المُلك لا يدوم وأن الحياة فانية[124].

ويكثر الأعشى من الإشارة إلى أيام العرب، كيوم أوارة[125]، ويوم الجفار[126]، ويوم حَجْر[127]، ويوم الحنو[128]، ويوم عباعب[129]، ويوم العين[130]، ويوم فطيمة[131]، ويوم ذي قار[132].

فالأيام وحكايات الأمم القديمة نبع فيّاض من الأساطير التي تصور حياة الشعوب العربية القديمة العقلية والوجدانية، وتصور معتقداتهم وقيمهم ومأثوراتهم، وكانت هذه الحكايات جزءا لا يتجزأ من حقائق حياتهم.

والمسيَّب رائد من روّاد القصة الأسطورية في الشعر الجاهلي التي امتدت امتدادا طبيعيا في شعر راويته الأعشى، الذي زادها خصبًا وغنى

---

(124) ديوان الأعشى، ق33، 34، 62.
(125) ديوان الأعشى، ق10، وق20.
(126) ديوان الأعشى، ق12.
(127) ديوان الأعشى، ق15 وق38.
(128) ديوان الأعشى، ق26.
(129) ديوان الأعشى، ق27.
(130) ديوان الأعشى، ق6، وق15 وق38.
(131) ديوان الأعشى، ق15.
(132) ديوان الأعشى، ق40 وق62.

وتنوّعا، وتمكّن من توظيف الأسطورة والحكايات الخرافية في شعره على نحو تفرّد فيه وتميّز، بل يكاد يكون نسيج وحده في هذا المجال إذا استثنينا حكايات أميّة بن أبي الصلت.

أنور عليان أبو سويلم